

الطرق الصوفية، المنهج والتطبيق

حسن بشير صالح*

يعد موضوع الطرق الصوفية من الموضوعات ذات الأهمية في قرننا الحالي، وترجع أهمية ذلك لانتشار هذه الطرق في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ولانضمام الكثير من المسلمين لهذه الطرق، إضافة إلى تعدد مناهج هذه الطرق على مستوى الانتشار، وعلى مستوى تأثيرها على عقول مرديها، ومن المعروف منذ القدم أن هذه الطرق تمثل الاتجاه التطبيقي للتصوف، فالعلاقة هنا علاقة جزء بكل، فالكلمة يمثلها التصوف، والجزء تمثلها الطرق.

فما هي الطريقة؟ وكيف بدأت الطرق في الانتشار في عالمنا الإسلامي سنتحدث في هذه الورقة عن نشأتها مع إلقاء الضوء على المنهج الذي اتخذته لتربية المرید.

بدأت الطرق الصوفية في الانتشار في العالم الإسلامي في خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، وكان للإمام الغزالي (ت 505 هـ) الأثر الفعال في نشأتها وامتدادها الزمني، حيث كان الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت 561 هـ)، وأبي نجيب السهروردي (ت 264 هـ)، وأبي حفص السهرودي (ت 632) صاحب كتاب "عوارف المعارف"، ثم المدرسة الشاذلية التي ظهر فيها تأثير المدرسة الغزالية للتصوف وأبو العباس المرسي (ت 686 هـ) في مصر، المشهور إلى يومنا هذا، ويحتفل مردي هذه الطريقة سنوياً، بمولده وأيضاً ابن عطاء الله السكندري (ت 709). هذه الطرق والمدارس التي تم ذكرها كان لها الأثر في سلوكيات مرديها، واكتسبت الشهرة إلى يومنا هذا والجدير هنا بالذكر أن هذه الطرق لم تقف عند حد مكان واحد، بل أخذت في الانتشار، ولا نقول التطور بل الزيادة في عدد المرديين، والزيادة في الزوايا التي تحمل أسماءها، وهنا علينا أن نقدم للقارئ تعريف مصطلح "الطريقة" ومصطلح "التصوف"، حتى تكون الصورة واضحة لديه بحيث يكون في استطاعته ربط "الطريقة بالتصوف" ولا يخرج عن ذلك، وأشرنا إلى ذلك لسبب الاختلافات التي ظهرت في تاريخ التصوف، وتاريخ الطرق، وما حدث من انحراف من بعض المهتمين بدراسة التصوف، وحتى من بعض المرديين، والمتصوفة.

معنى الطريقة

ومن حيث أدوار مشايخ الطرق، فتعني الطريقة، ما يصنعه شيخ من مشايخ الصوفية لمجموعة من المرديين من أوضاع يلتزمونها، ويختصون بها دون غيرهم (2). فدور الشيخ هنا واضح، وهو وضع المنهج الذي يسير عليه المرید لينخرط في الطريقة علي منهج واضح جلي، والانحراف عنه يعني عدم نجاح المرید في متابعة الحياة الصوفية التي تؤدي إلي أن يكون مریداً ناجحاً وبالتالي إلي المشيخة إذا توفرت له سبل ذلك وانطبقت عليه الشروط اللازمة لذلك.

ومنذ قليل أشرنا إلي نشأة الطريقة حيث قلنا أنها بدأت في القرن السادس الهجري، لايحتمل أن هذا التاريخ هو بداية ظهور الطريقة، بل كان ظهورها قبل ذلك، فقد ظهرت في القرن الثالث عشر الهجري، وتعني عند هذا الظهور (منهج النفس الأخلاقي) الذي يدير عملياً نظام السلوك الفردي، ثم أخذ معنى آخر في القرن السادس الهجري فأصبح عبارة عن جملة مراسم التدبير الروحي المعمول به من أجل المعاشرة في الجماعات الإخوانية الإسلامية المختلفة التي بدأت تنشأ في ذلك الحين (3)

الطريقة عند الصوفية هي السيرة المختصة بالمتصوفة السالكين إلى الله فهي بهذا المعنى سفر أو انقطاع إلى الله عزّ وجلّ، والسالك أو المرید هو المسافر ليس لوحده بل بمعية إخوانه وهذا ما يملي عليه سلوك طريق الأقران، وعليه أن يسلكها مرحلة بعد مرحلة، ولا بد من اجتيازها، أما من أدركته عناية الله فحذبه العناية جذباً، فهذا ما يسمونه المجذوب الذي طويت له الطريق طياً في سفر خاطف بفضل الله ومنته (1)

يفهم من ذلك أن الطريقة الصوفية منهج ينهجه المرید، وهذا المنهج ينقسم إلي نوعين الأول: منهج المراحل الذي يكون فيه التعليم علي مراحل، والاختبار لهذه المراحل لا بد منه حتى يسمي مرید، وحتى تتكون الطريقة، فالطريقة بهذا المعنى منهجاً علمياً.

أما النوع الثاني: فهو القفز بتوفيق من الله إلي الدرجات العلي بشكل مباشر، وبعدها تنكشف له أمور لا تنكشف إلي جذب كل مرید، وهذا حسب اعتقادي ما يسمي الجذب، أو مرحلة المرید لأنه أنقطع إلي الله انقطاعاً تاماً.

* قسم التفسير - كلية الآداب - جامعة سيها.

ومرتبة الاستقامة ومرتبة التهذيب، ومرتبة التقريب وبشي من التوضيح نورد هذه المراتب:

1- المرتبة الأولى وهي التوبة التي تعد أصل كل مقام وحال، وهي أول المقامات عداً، وهي بمثابة الأرض للبناء فمثلاً لاثوبة له لاحال ولا مقام له فهي أصلها، وهي المقدمة التي يبدأ بها السالك في طريقه.

2- المرتبة الثانية: فهي مرتبة الاستقامة علي الطاعة واجتناب المخالفات، وإقامة الأدوار والدعاء في جميع الحالات، واتباع المراد وإيثار السداد، وهذه المرحلة يظهر فيها المرید وربما خائفاً، مطيعاً يلهج لسانه وقلبه بالذكر والدعاء ويهدف الي رضاء الله ورضاء مشائخه في مرحلة ليست بسيطة بل تحتاج إلي مجاهدة من المرید منقطعة النظر.

3- مرتبة التهذيب: وهي مكملة للمرتبتين السابقتين وقائمة عليها، ولها حسب رأي المتصوفة أربعة أركان: الصمت والعزلة، والصوم والسهر، وكل واحد منها يوقع عدواً، فالشيطان سلاحه الشبع، وسجنه الجوع، والهوى وسلاحه الكلام، وسجنه الصمت، والدنيا سلاحها لقاء الخلق وسجنها العزلة، والنفس سلاحها النوم وسجنها السهر. (6)

4- مرتبة التقريب: فهذه هي المرتبة الرابعة التي قيل عنها "و بعد أن يدخل السالك الصادق إلي الخلو بشروط، ويداوم الذكر ولا يتركه ساعة حتى يصير الذكر له بمثابة النفس يجري من غير اختيار ولا تقصد... فإذا حصل له هذا اتسعت له ميادين الله ومرافق أسرارهِ. (7) هذا هو المنهج المتبع في الانتساب إلى الطرق الصوفية وهذه هي المراتب المتعارف عليها. إلا أن حال الطرق الصوفية اليوم يختلف عن الأولى حيث دخل إليها من أساء إليها من خلال تلك الأجازات والرخص التي تمنح لمن لم يستحقها من الأتباع لأنهم لم يستطيعوا حفظ العهد والذمة بالكيفية المطلوبة وقال عنهم السيد إبراهيم الدسوقي ونحن نؤيده في ذلك لكثرة هؤلاء المتلصقين في الطريقة يقول " أمثال هؤلاء من السفلة كانوا سببا في تشويه معالم الطريقة، وانصراف الناس عنها فالذي هاجم الصوفية، إنما هاجم هؤلاء الأذعياء، وظن أنهم يمثلون كل الصوفية، والصوفية من هؤلاء براء. (8). يقول ذلك محافظة علي الطريقة الصوفية، وعلي منهجها، وحتى لا يتم الانحراف بها وتشويهها، وبالتالي يشوبها الضعف والخور وتفقد قيمتها الدينية والأخلاقية.

وإضافة إلي المراتب التي ذكرت للصوفية توجد مقامات وأحوال هي مكملة للمنهج الصوفي الذي وضع للطرق، وحتى لانقع في شبه أو تناقض نعرف للفارسي مصطلح المقام في الصوفية: فمعناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما تقام فيه من العبادات والمجاهدات، والرياضات والانقطاع إلي الله عز وجل ويقول الله تعالي

نخلص من ذلك كله لنصل إلي تحديد معني الطريقة فهي عبارة عن مجموعة من الأوامر والنواهي التي حددها المشايخ للمريدين، وما علي المرید إلا الالتزام بها كمنهج سلوكي، وتلك الأوامر والنواهي لاتخرج عن روح العقيدة الإسلامية التي تعتبر المصدر الرئيسي للتصوف لتأتي موافقة لقول الله عز وجل في كتابه العزيز: " وأن لو استقاموا علي الطريقة لا سقيناهم ماء غدقا " (4)

هذا بعينه المنهج الذي وضع في التصوف الإسلامي الذي قسم الطريق للانتساب إلي الطريقة إلى أربعة أقسام جاءت علي النحو التالي:

1- أخذ المصافحة والتلقين للذكر ليغوص المرید في معرفة الله، وحبه له، ولبس الخرقه والعذبة للتبرك، أو أنها دلالة واضحة للانتساب.

2- أخذ رواية لقراءة كتبهم لإدراك معانيها، والتعمق في فهمها، وهذا القسم ليس ببعيد عن القسم الأول حيث أنه هو أيضا للتبرك والنسبة.

3- أخذ منهج التحليل لكتب التصوف لفهم وإدراك معانيها فقط.

4- القسم الرابع والأخير وهو القسم الذي يمثل الجزء العملي من المنهج، وهو التدريب والتهذيب، والترقي في الخدمة بالمجاهدة التي تؤدي بالمنتسب للمشاهدة والفناء في التوحيد والبقاء، وهو الهدف الاسمي، وعلي هذا أخذته أكثر الطرق.

وإضافة إلي هذه الأقسام الأربعة في منهج الانتساب، يمكن لمن يريد الانتساب أن يتخذ طريق الإتياع والمشاركة، ولو في شي يسير مع المحبة لهم، كتلاوة حزب من أحزابهم، وهو ما أكده الشاذلي في قوله: " من قرأ حزبا فله مالنا، وعليه ما علينا " (5). وهذا قبول صريح من أحد المتصوف لمن يريد أن ينتسب إلي الصوفية.

هذا منهجا عمليا تسلسل تسلسلا منطقيا في الانخراط في حركة التصوف، ونستطيع أن نقول بأن هذا المنهج ليس ببعيد عن مناهج التربية والتعليم، فالشيخ في الطريقة مرربي، والمرید تلميذا يتلقى العلم في صورة أوامر ونواهي ثم يسلك في حياته مسلك المرید الناجح أو المتصوف الذي انتهل علوم الصوفية عن طريق أي طريقه انتسب إليها تم يعول عليه فيما بعد في التمسك بالطريقة ونشر تعاليمها التي تحددت معالمها عن طريق المراتب الصوفية وسنناقشها في الجزئية التالية:-

- مراتب الطريق الصوفي:

حددت مراتب الطريق الصوفي بأربعة مراتب، لا يحق للسالك أن يتحدث في التصوف، ولا أن يكون عارفاً إلا بالمرور عليها بشكل منتظم. فلا يضع السالك قدمه، ولا يدخل في واحدة حتى يعمل ما قبلها وهي مرتبة التوبة

وإذا كانت أهمية وجود الشيخ واضحة في المنهج الصوفي فلا بد للشيخ من شروط يلتزم توفرها فيه، ويحددنا هذه الشروط أحد المتصوفة وهو ضياء الدين الكمشخو: إذ يقول: "أن يكون ذا ذوق صريح، وهمة عالية، وحالة مرضية، ويعين نافذة فمن كان فيه خسة من الخسائس الآتية: لا تصح مشيخته، الجهل بالدين، وإسقاط حرمة المسلمين والدخول فيما لايعني، وأتباع الهوى في كل شي، وسوء الخلق من غير مبالاة (14)

ويضع الجنيد شروطاً للشيخ فيقول: لا يستحق أن يكون شيخاً حتى يأخذ حظه من كل علم شرعي، وأن يتورع عن جميع المحارم، وأن يزهد في الدنيا، وألا يشرع في مداواة غيره إلا بعد فراغه من مداواة نفسه، وحتى يكون علي علم يهدي به العباد، فإذا مرض مريده بسبب شبهة في علم التوحيد داواه وإذا تحير في مسألة من مسائل الفقه أفتاه، ويشترط أن يكون لديه الفناعة بالغني عن الناس، وأن يخاف ويخشى من المعاصي والأنداس وأن يلازم العمل بالكتاب والسنة، ويزين أقواله وأفعاله بميزان الشريعة والطريقة فإن رأيت منه شيئاً مخالفاً للشرع فاتركه حتى وإن كان ذا حال صحيح، فما عليه في رده بحكم الشرع من بأس ولا تتخذة مرشداً (15). لم يقف الجنيد في هذا النص علي شروط الشيخ وصفاته، بل نبه إلي من لم تتوفر فيه هذه الشروط، فهو لا يمكن أتباعه، ويجب مقاطعته، وقد رسم طريق المريدي في إتباع الشيخ في الطريقة، ولا يمكن لشيخ تنقصه هذه الصفات أو يختل فيه شرط من هذه الشروط فينصح المريدي بالابتعاد عنه، وعدم الاعتراف بمشيخته، وهذا منهج صحيح فيه من الاتجاه الأخلاقي في ما يؤكد الأخلاق الحميدة التي يجب التمسك بها من الشيخ أولاً ثم من المريدي خاصة وأن الطريقة دائماً تهدف إلي بناء شخصية صالحة في عملها وعلاقتها بالغير، وعلاقتها بربها الذي أمر الناس بالعبادة الخالصة، والتمسك بالأخلاق الحميدة

وتأكيداً لذلك ما ذكره السراج الطوسي في اللمع حين قال: "وجدت في كتاب لأبي سعيد الخزاز، رحمه الله أحد رجال الصوفية، يوصي مريداً فقال له: يا أخي، خالط أصحابك، وخالط أهل الدنيا مخالطة، شاهدتهم بظاهرك، وخالفهم بفعلك، ودينك لا تقلب، أن ضحكوا فابك، وإن فرحوا فأحزن، وإن استراحوا فجد، وإن شبعوا فتنوع، وإن ذكروا الدنيا فأذكر الآخرة، أصبر علي قلة الكلام والتظاهر والحركة والطعام والشراب واللباس حتى يسكنك الله من الفردوس حيث يشاء برحمته (16)

نرى في هذا المنهج وضع واعتماد قاعدة المخالفة، لأن فيها حسب رأي الطوسي التدرج إلي الأفضل وأتباع المؤلف في المجالس التي يتم فيها الذكر، وتهذيب النفس وتخليصها من أدران الشبهات. كما قال أبو سعيد

في كتابه العزيز " ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد" (9). وقد سئل أبو بكر الواسطي عن قول النبي صلي الله عليه وسلم: "الأرواح جنود مجندة" قال مجندة علي قدر المقامات، والمقامات مثل التوبة والورع والزهد والفقر، والصبر والرضا والتوكل، والحال ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار.

وقد حكي عن الجنيد رحمة الله أنه قال: "الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم" (10)

والمقامات مكاسب أي يكتسبها الإنسان باجتهاده عن طريق التعليم باتخاذ المنهج التربوي الصوفي، أما الأحوال فهي مواهب، أي موهبة من الله تعالي وهي لا تدوم، ولهذا قيل أن الصوفي ابن وقته، لأنه يعيش الحال حسب الموقع الذي وصل إليه، ولهذا عرف التصوف بأنه تجربة ذاتية. فلا بد من مقامات وأحوال وألا تضيق ملامح الطريق وهو ما سنتناوله الآن:

- ملامح الطريق الصوفي:

تتضح ملامح الطريق الصوفي من خلال ثلاثة عناصر رئيسية إذا نقص واحد منها فلا تتضح هذه الطريقة، ويضع المعني الأصلي للتصوف فالملاح هي: الشيخ والمريد والعهد الذي بينهما.

1- الشيخ هو بمثابة الأستاذ للمريد، فالمريد كالتالاب لا يستطيع أن يتقدم في دروسه بدون موجه أو مرشد، ولا يستطيع الفرد في نظر الصوفية أن يسلك هذا الطريق بمفرده، لأنه طريق صعب متشعب المسالك كثير المنحنيات مليء بالصعاب يتربص بسالكه أعداء أشداء في حاجة إلي جهاده ومن هولاء الأعداء الشيطان والنفس والهوى، لذلك لا بد لمن يسلك هذا الطريق الصعب من مرشد وهاد يأخذ بيده وهو الشيخ (11). هذا تأكيداً علي أهمية وجود المرشد الذي يتمثل في شخص الشيخ أو المعلم الذي يقوم بتدريب وتوجيه المريدي، وهو ما عليه المنهج التربوي، ولهذا تأكد المبدأ الصوفي المعرفي المعروف وهو: "من لاشيخ له كان الشيطان شيخه" ولا يصلح الطريق الصوفي بدون شيخ.

ويؤكد لنا ذلك أحد المتصوفة وهو شهاب الدين السهروردي صاحب كتاب عوارف التعارف (ت632) في قوله "ولا بد للمريد من شيخ مرشد إلي الحق يرشده ويلقنه الذكر، ويلقي في روعه النور، فإن تلقين الشيخ يلقي باطن المريدي، ويسري فيه كأنما يلقي من سراج، فعلي المريدي اختيار الشيخ الصالح المشهود له بالعلم والمعارف واتقاء المحارم (12). فوجود الشيخ يؤمن الطريق للمريد، وتتم المحافظة علي المنهج الصوفي. ويقول الشيخ عطاء الله السكندري: من لم يكن له شيخ يوصله إلي سلسلة المتابعة فهو في الطريق لقيط لا أب له، وفي المعرفة دعى لا نسب له (13)

تعالى ، والله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد " (17) فالأمر هنا هو التركيز على أخلاقيات الشيخ الذي يكون القدوة الحسنة للمريد الذي يعتبر لبنة جديدة في الطريقة ، ولكي تشكل هذه اللبنة بطريقة جيدة لا بد من أن يكون المسؤول عن هذا التشكيل علي مستوي رفيع من العلم والمعرفة والأخلاق .

1- المرید:

الحجب التي بينهم وبين الله تعالى، فما دام هو متمسكا بهذه الآداب ، ومتخلقا بهذه الأخلاق ، ويكون مستعينا في ذلك بالله متوكلا على الله عزّ وجلّ راضيا عنه (23) وخطوات المرید نحو الطريق تتم بثلاث مراحل الأولى : تبدأ بالتوبة "وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون" (24) .

الخطوة الثانية : هي أخذ العهد من الشيخ بطاعة الله ورسوله والسير في الطريق .

الخطوة الثالثة : هي التلقين وهو تعليم الشيخ للمريد كيفية الذكر نطقاً وبدأ في مرحلته الأولى ويتجدد التلقين كلما قطع المرید مرحلة من مراحل القرب من الله تعالى (25) .

ج - العهد :

العهد هو الرابطة التي تربط بين المرید والشيخ، بمعنى أن هذا العهد بيعة لله تعالى مصداقاً لقوله تعالى:- "إن الذين يبائعونك إنما يبائعون الله يد الله فوق ايديهم" (26) .

والبيعة عقد الزامي يلزم المتعاقدين بكل ما في بنود البيعة أشد وأوثق من الايمان " وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً" (27) .

فمهما تعددت صور وكيفيات أخذ العهود لكل طريقة إلا أنها تتفق في أن واجب المرید الذي يرغب في أخذ العهد عن شيخ ينبغي على هذا الشيخ أن يأمره بالتطهر من الحدث والخبث ليتيها لقبول ما يلقيه عليه ، ويتوجه إلى الله تعالى (28) .

تلك هي أهم ملامح الانخراط في الطرق الصوفية، وتتميز الطرق الصوفية بلبس الصوف، وهو لباس الصوفية عامة، والذكر والسماع وإقامة الموالد ويجب علينا ونحن نتحدث عن الملامح الصوفية أن نعرف كلمة التصوف وبعدها نوضح هذه الملامح .

- الاشتقاق اللغوي لكلمة التصوف :

تعددت الآراء واختلفت في أصل كلمة صوفي، ومن أين اشتقت هذه الكلمة ؟

فقالوا من الصفاء أو الصفة، ومن الصفة أو من الصوفة أو من الصوفانة ، ومن سوفيا أو من صوفة القفا، ومن الصوفة المرقية ، أو بنو صوفة ، وأخيراً من الصوف وإذا رجحنا أصل الكلمة أنه يرجع الى الصفاء فهذا صحيح،

الخرّاز: "أحفظ وصيتي أيها المرید، وارغب في ثواب الله تعالى، وإنما هو أن ترجع إلي نفسك الخبيثة فتذيبها بالطاعة، وتفارقتها ، وتميتها بالمخالفة ، وتذبحها بالاياس فيما سوي الله ، وتقتلها بالحياء من الله عز وجل ، ويكون الله حسبك ، وتسارع إلي جميع الخيرات ، وتعمل في جميع المقامات وقلبك وجل أن لا يقبل منك ، فهذا حقائق القبول والإخلاص والصدق حتى تتخلص وتعيد إلي الله تأتي مرتبة المرید بعد مرتبة الشيخ ، وإذا كان الشيخ هو رأس الطريقة ، فإن الطريقة لا تقوم بدون مرید ، وهذا المنهج استمد من المنهج التعليمي والتربوي الذي تتكون عناصره من معلم ومتعلم وفصل دراسي . وحديثنا الآن عن المرید وهو العنصر الثاني في الطريقة فهو يتلقى تدريبه عن طريق شيخ لأنه إن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً ، كما تستمد الصوفية التأدب مع الشيخ من قصة موسى مع الخضر حيث استأذن موسى عليه السلام من الخضر في قوله تعالى : "هل اتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً" (18) .

وكان موسى مریداً عند الخضر الذي يمثل دور الشيخ ، فموسى لما أراد الصحبة استأذن ، فشرط عليه الخضر ألا يعارض في شيء ، وثبت ذلك في قول الله عزّ وجلّ : "فان اتبعنتي فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً" (19) . ولما خالفه موسى تجاوز عنه المرة الأولى والثانية ولما انتهى من الثالثة ، وهي أول مراتب الكثرة سألته الفرقة بقوله تعالى : "هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صديراً" (20) ، وهذا تأكيداً على إيجاب طاعة الأستاذ في التربية ، وفي هذا الصدد يقول المشايخ : "عقوق الأستاذ لا توبة له" (21) .

وفي وصية للمرید يقول الرزي الحنفي (ت666): أعلم أن أول قدم للمرید في هذا الطريق : ينبغي أن يكون على الصدق ليصبح له البناء على أصل صحيح ، فإن المشايخ قالوا : "إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول" (22) .

والقصد من ذلك لا يصل المرید في الطريقة إلا باسترشاد ومن الشيخ الذي يمثل في الطريقة ، والاعتماد في هذا المنهج إما أن يكون عن طريق العقل أو عن طريق النقل ، ولا ثالث لهما .

ويقول أبو سعيد الخرّاز رحمه الله: "من أدب المرید، وعلامة صدق إرادته أن يكون الغالب عليه الرقة والشفقة، والتلطف والبذل، واحتمال المكاراة كلها ... ويكون المرید للشيخ كالابن البار وللصبي كالأب الشفيق، ويكون مع جميع الخلق على هذا، ويتشكى بشكواهم ويغتم لمصائبهم ويصبر على أذاهم فإن هذا مراد الله تعالى من المریدين الصادقين، وأن يعطفوا على الخلق من حيث مأمّن الله تعالى عليهم، ويتأدّبوا بأداب الانبياء والصدّيقين وأداب أوليائه وأحبابه حتى ترفع

وليس الصوف كان عادة الأنبياء عليهم السلام والصدّيقين لأنه رمز للزهد والتشف وخشونة الملابس وأن صاحبه لا يهتم بأمور الدنيا وهو دائماً مستعد للأخرة . وهذا سلوك أملاه عليه الموقف الصوفي الذي لا يمكن أن يكون حسب رأي المتصوفة إلا بهذا اللبس .

2- الذكر :

ذكر صاحب "حدايق الحقائق" فضل الذكر فقال : اعلم أن الذكر هو العمدة في هذا الطريق ، فلا يصل أحد إلى الله تعالى إلا بدوام ذكره وهو مأمور به أيضاً (30) - لأنه هو حلقة الوصل بين العبد وربّه . وتستمد الصوفية الذكر من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلاً" (31) . وقوله تعالى " فاذكروني أذكركم" (32) وقوله تعالى "الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب" .

وفي الحديث القدسي الذي رواه البخاري ومسلم : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب إلى شبر اقتربت إليه ذراعاً وإن اقترب إلى ذراعاً اقتربت إليه وإن أتاني يمشي أتيت به رولة . (33)

والذكر ثلاثة أنواع ذكر باللسان وذكر بالقلب وذكر بالروح - بالأول يتوصل إلى الثاني ، وبالثاني يتوصل إلى الثالث ، الذي هو الغاية القصوى وقيل هو ثلاثة أنواع :-

ذكر اللسان في غفلة القلب : ويسمى ذكر العادة وهو ذكر العوام - وثمرته العقاب لأنه ذنب .

وذكر باللسان مع حضور القلب : ويسمى ذكر العبادة ، وهو ذكر الخواص وثمرته الثواب .

وذكر جميع الجوارح والأعضاء : ويسمى ذكر المعرفة والمحبة ، وهو ذكر خواص الخواص ، وثمرته لا يمكن التعبير عنها ، ولا يعلم قدر ذلك الذكر إلا الله تعالى .

وقيل : حقيقة الذكر : أن تذكر الله تعالى وأنت ناس لكل شيء سواه .

وقال ذا النون المصري : "من ذكر الله على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء وحفظ الله تعالى عليه كل شيء وحفظ الله تعالى عليه كل شيء ، وأفضل الذكر : لا غله إلا الله لقوله صلى الله عليه وسلم "أفضل الذكر لا إله إلا الله ، والذكر الخفي أفضل لقوله تعالى : "واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة" (34) .

آداب الذكر :

لذكر آداب كثيرة أهمها بالرعاية وهي تنحصر في النقاط الآتية :-

لأن الصوفية يجب أن تكون قلوبهم صافية ، ومنزع الصوفية، هو التنصيف الروحية، إلا أنه من الناحية الصرفية لا يجوز اشتقاق لفظ صوفي من الصفاء، لأنه إن كان كذلك ، لكان يطلق عليه صفائي وليس صوفي. والاشتقاق اللغوي من الكلمات التي ذكرناها فكلها بعيدة لأنه إن قلنا من الصفة التي تعني مساحة مسقوفة بسعف النخيل، لقليل صفّي، وليس صوفي، وإن كان من لفظ الصفة الذي يعني الفريق المختار، وهذا لا يصح لأنه إن نسب إلى هذا اللفظ لقليل عنه صوفائي لا صوفي.

أما إذ قلنا هذا اللفظ يرجع إلى الكلمة اليونانية صوفياً، فالأمر هنا لا يستقيم لأن الاشتقاق اللغوي للكلمة لا ينطبق عليها فلفظ الصوفي بالصاد وليس بالسین .

وكلمة صوفة القفا لا تصلح هي أيضاً من ناحية الاشتقاق اللغوي، لأنها تدل على حلق مؤخرة الشعر ، فهي لا تصلح لاستغراق التصوف كله .

أما أن التصوف يرجع إلى قبيلة (بني صوفة) التي وجدت في اليمن قبل الإسلام، ولقب أحدهم بلقب الصوفة وهو (الغوث بن مرة) لما أنذرت أمه لبيت الله الحرام، وعلقت على رأسه في صغره صوفة وسماه الناس ((ربيط الكعبة)).

نخلص من ذلك إلى أن الرأي الأخير والأقرب للاشتقاق اللغوي هو أن التصوف مشتق من الصوف لأن ما يرتديه الصوفي يعبر عن خشونة الزهد واستعمل الصوف كملبس للزهاد والنسك، كما أن الحواريين انصار سيدنا عيسى عليه السلام سموا بالحواريين نسبة إلى الملبس الأبيض الذي كانوا يرتدونه أو لأنهم كانوا يغسلون ثيابهم وبيضونها. وبهذا يكون لفظ الصوفي نسبة إلى لبس الصوف وهذا هو الاشتقاق اللغوي للكلمة، أما الاشتقاق الاصطلاحي فكما وجدنا الاختلاف في الاشتقاق اللغوي ، نجد الاختلاف في المصطلح فاختلاف أهل الحقيقة في تعريف التصوف، فمنهم من اعتبره سلوك أخلاقي، فيقول: "التصوف هو الخروج من كل خلق دنيوي، والدخول في كل خلق سني" وقال الجنيد "الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ، ولا يخرج إلا كل مليح" وقيل "الصوفي لا يكدره شيء ويصفوا به كل شيء". وبعد عرضنا لمصطلح "الصوفي" علينا استعراض الأحوال التي يكون عليها الصوفي وهي تأتي على النحو التالي :-

1- لبس الصوفي أو المرقعة

يذكر السراج الطوسي إلى أن القوم - أي الصوفية - نسبوا إلى ظاهر اللباس ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التي هم بها مترسمون ، لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصدّيقين وشعار المساكين المنتسكين (29) .

(1)- منها ما هو حرام محض ، وهو لأكثر الناس من الشباب ، ومن غلبت عليهم شهواتهم ولذاتهم وملكهم حب الدنيا وتكدرت بواطنهم وفسدت كل مقاصدهم، فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو غالب عليهم ، وعلى قلوبهم من الصفات سيماً في زماننا هذا – زمن العز بن عبد السلام – وتكدر أحوالنا وفساد أعمالنا .

(2)- ومنها هو مباح لمن لاحظ منه إلا التلذذ بالصوت الحسن واستدعاء السرور والفرح أو يتذكر غائباً أو ميتاً فيثير حزنه فيروح بما سمعه .

(3)- ومنها ما هو مندوب، وهو لمن غلب عليه حب الله تعالى والشوق إليه فلا يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة، وتضاعف الشوق إلى الله سبحانه وتعالى (37) .

إن تجيز الصوفية السماع الذي يهدف إلى التقرب إلى الله تعالى وعدم إثارة الشهوات والرغبات بل الذي يطهر القلب وينقي السريرة فهو جائز. ويذكر الهروي صاحب كتاب التمكن في شرح منازل السالكين بان حكم السماع شرعاً: يتبع ما تعلق به إن خيراً فخييراً، وإن شراً فشرراً، فإن كان المقصود بالسماع حب الله تعالى والتبذل إليه، والازدياد من الايمان به والتجنب إليه، فانعم به من سماع وإن كان السماع مجرد اللهو والتسليّة واشتغال النفس وانبساطها وسرورها وفسادها، وتقوية الغرائز وامتدادها والتذاذها فالسماع مكروه محرم، أما إذا كان السماع بعيداً عن المجون بريئاً من اللهو يرجو منه صاحبه سمو روحه، وارتفاع نفسه بهمته فهو ليس مكروهاً (38) .

وقال بندار بن الحسين ت (354 هـ) السماع ثلاثة أقسام سماع بالطبع: ويشترك فيه الخاص والعام، وبالجملة البشرية في استلذذ الصوت الطيب. وسماع بالحال: وصاحبه يتأمل ما يرد عليه من ذكر عتاب أو خطاب أو تصديق بوعده أو نقض لعهد أو ذكر اشتياق أو خوف فراق أو فرح وصال أو نحو ذلك، وسماع بحق لا بخط: وصاحبه يسمع بالله، ولا يتصف بشيء من هذه الأحوال التي هي ممروجة بالخطوط البشرية، بل بصفاء التوحيد (39) هذه هي أنواع السماع التي اعتمدت في منهج الصوفية ، وللسماع آداب هي آداب السماع :

وضع الإمام الغزالي خمسة آداب للسماع هي :

الأدب الأول :- مراعاة الزمان والمكان والإخوان، قال الجنيد السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء وإلا فلا تسمع الزمان والمكان والإخوان ومعناها : أن الاشتغال به وقت حضور الطعام أو صارف من الصوارف مع اضطراب القلب لا فائدة فيه، فهذا معنى مراعاة الزمان، فيراعى حالة فراغ القلب، وأما المكان فقد يكون شارعاً مطروفاً أو موضوعاً كريحه الصورة، أو فيه سبب يشغل القلب فيتجنب لطائف القلوب .

1- الخشوع والتأدب، واستحضار معاني الصيغ "ومحاولة التأثير بها وملاحظة مقاصدها وأغراضها .

2- خفض الصوت ما أمكن ذلك مع اليقظة والهمة الكاملة حتى لا يشوش على غيره .

3- موافقة الجماعة إن كان الذكر مع جماعة ، فلا يتقدم عليهم ولا يتأخر عنهم ولا يبني على قراءتهم ، بل إن حضر وقد بدوا ابتداء معهم من أول صيغة ، ثم قضى ما فاتة بعد انتهائه، وإن تأخر عنهم في أثناء القراءة، قرأ ما فاتة وأدركهم . ولا يبني على قراءتهم أصلاً. يكوننا بذلك قد حرف القراءة وغير الصيغ وذلك حرام اتفاقاً .

4- النظافة في الثوب والمكان، ومراعاة الأماكن المحرمة والأوقات المناسبة.

5- الانصراف في خشوع وأدب، مع اجتناب اللغو واللغو للذين يذهبان بفائدة الذكر وأثره، هذه هي آداب الذكر التي يجب على المرید إتباعها، ولا يقف عند هذا الحد بل لما بعد الذكر آداب هي :

1- أن يسكت بعد سكون ويخشع، ويحضر مع قلبه مترقباً لوارد الذكر .

2- أن يذم نفسه مراراً بقدر ثلاثة أنفاس إلى سبعة أنفاس وأكثر حتى يدور الورد عوامله فتثور بصيرته، وتقطع عنه خواطر النفس والشيطان، وتكشف عنه الحجب .

3- منع شربة الماء البارد عقب الذكر ، فإن الذكر يورث حرقة وهيجاناً وشوقاً إلى المذكور الذي هو المطلوب الأعظم من الذكر، شرب الماء يطفئ تلك الحرارة (35) تلك هي الآداب التي يجب أن يتحلى بها الذكر، ولكننا نرى في يومنا هذا كثير من الذاكرين يستعملون الآلات الموسيقية في الذكر ويقومون بحركات تشبه حركات الرقص، وهذه الأمور مرفوضة لأنها ليست من التصوف الصحيح، ولكن يقوم بها البعض عن جهل بقواعد التصوف .

هذه الآداب التي تأتي بعد الذكر تهيأ المرید إلى مرحلة جديدة في حياته الصوفية ، تعرف بالسماع .

3- السماع :

ذكر السراج الطوسي في "اللمع" السماع فقال: بلغني أنه سئل ذو النون يقصد ذا النون المصري – رحمه الله عن السماع فقال: وارد حق يزجج القلوب إلى الحق، فمن أصغى إليه بحق تحقق، ومن أصغى إليه بنفس تزندق .

وقال بعضهم: السماع غذاء الأرواح لأهل المعرفة، لأنه وصف تدق عن سائر الأعمال، ويدرك برقة الطبع لرقته، ويدرك بصفاء السر لصفائه ولطفه عند أهله وسئل الشلبي، رحمه الله، فقال: السماع ظاهرة فتننة وباطنه عبيرة، فمن عرف الإشارة حل له استماع العبيرة، وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية (36) ويقسم العز بن عبد السلام السماع إلى ثلاثة أقسام جاءت على النحو التالي :-

والثناء عليه وشكره وحمده، والقصد من ترديد الحزب دوام حضور المرید مع الله تعالى، وعدم الغفلة عنه، ولقد جرى المعتدلون من الصوفية على صياغة أحزابهم بعبارات سلسلة واضحة قريبة المدخل سهلة الفهم، ذات أثر فعال في النفس، كما أن أجود الأحزاب ما تضمنت أكبر قدر من القرآن الكريم باعتباره أفضل الذكر، وأكبر قدر من المأثورات الواردة كما يتحقق وجهه أفضلية فيها، من جهة وكما تكون شارحة معبرة من خصائص القلوب وصفاتها من جهة أخرى (41).

الأحزاب عند الصوفية تستمد شريعتها من القرآن الكريم. السنة النبوية المطهرة.

وقد ذكر أبو طالب المكي أن أوراد النهار سبعة: أولها من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس وهو الذي أقسم الله تعالى به حيث قال: "والصبح إذا تنفس"، والورد الثاني بعد طلوع الشمس إلى انبساطها، والورد الثالث الضحى العلى الذي قسم به فقال تعالى "والضحى" والورد الرابع زوال الشمس حيث تفتح أبواب السماء للمصلين الذاكرين، والورد الخامس ما بين الظهر والعصر وهو من أطول الأوراد وأمتعتها والورد السادس وقت العصر، بعد اصفرار الشمس وهذا الوقت للتسبيح والتذكير والتلاوة والاستغفار إلى غروب الشمس وكذلك أوراد الليل خمسة.

والفرق بين الورد والحزب هو أن الورد يقرأ في أوقات معينة، فتقال أوراد النهار وأوراد الليل، أما الحزب فليس لقرائه وقت مخصوص.

شرعية الأحزاب والأوراد

استندلت الصوفية بشريعة الأحزاب بالأمر الآتية:-

1- أن النبي صلى الله عليه وسلم أقر هذا الاجتهاد في الدعاء وحيداً انه بناء على ذلك أنه يجوز لمن يستطيع ولمن لا يستطيع التعبد بالمأثور أن يتعبد بغير المأثور من أوراد وأحزاب (42).

2- أن النبي صلى الله عليه وسلم أقر هذا الاجتهاد في الدعاء وحيداً.

3- أنه بناءً على ذلك يجوز لمن يستطيع ولمن لا يستطيع التعبد بالمأثور أن يتعبد بغير المأثور من أوراد وأحزاب. وبهذا نكون قد وصلنا إلى نهاية عرض موضوع الطرق الصوفية مبينين أهمية الطرق الصوفية والمنهج الذي اتخذته في التربية الصوفية.

هوامش البحث

- 4- سورة الجن، آية رقم 16
- 5- أبو الوفاء التفتازاني: الطرق الصوفية في مصر، بحث منشور بمجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد 25، ص 69
- 6- عامر البخار: مرجع سابق، ص 21.

الأدب الثاني: هو نظر الحاضرين، ذلك أن الشيخ إذا كان حوله مريدون يضرهم السماع فلا ينبغي أن يسمع في حضورهم، فإن سمع فليشغلهم بشغل آخر والمرید الذي يستضر بالسماع أحد ثلاثة، أقلهم درجة هو الذي لم يدرك من الطريق إلا الأعمال الظاهرة، ولم يسكن له ذوق السماع فلا ينبغي أن يسمع في حضورهم، فإن سمع فليشغلهم بشغل آخر، فاشتغال بالسماع اشتغال بما لا يعنيه، فإنه ليس من أهل اللهو فيلهو ولا من أهل الذوق فينعم بدون السماع.

والثاني: هو له ذوق السماع ولكن فيه بقية من الحظوظ والاتفات إلى الشهوات والصفات البشرية فيما يهيج السماع منه داعية اللهو والشهوة فيقطع عليه طريقه ويصده عن الاستكمال.

الثالث: أن يكون قد انكسرت شهوته وانفتحت بصيرته واستولى على قلبه حب الله تعالى لكنه يحكم ظاهر العلم، ولم يعرف أسماء الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما يستحيل، فإذا فتح باب السماع، ونزل المسموع من حق الله تعالى على ما يجوز وما لا يجوز، فيكون ضرورة من ذلك خاطر الذي هو كفر أعظم من نفع السماع.

الأدب الثالث: أن يكون مصغياً إلى ما يقول القائل حاضر القلب قليل الالتفات على الجوانب متحرز عن النظر إلى وجوه المستحقين، وما يظهر عليهم من أحوال الوجد مشتغلاً بنفسه ومراقبة ما يفتح الله عليه من رحمته في سره.

الرابع: ألا يقوم ولا يرفع صوته بالبكاء وهو يقدر على خبط نفسه ولكن أن رقص أو تباكى فهو مباح إذا لم يقصد به مراعاة.

الخامس: موافقة القوم في القيام إذا قام واحد منهم من وجد صادق من غير رياء وتكلف أو قام باختيار من غير إظهار وجد، وقامت له الجماعة فلا بد من الموافقة فذلك من آداب الصحبة (40).

وفي نهاية هذا البحث، نورد الموضوع الذي له علاقة وطيدة بمنهج المتصوفة وهو ما وضعه المتصوفة من أحزاب وأوراد يحفظونها المریدون، ويرددونها في جلساتهم النظامية وهو متم لمنهج الطرق الصوفية.

الأحزاب والأوراد عند الطرق الصوفية

الحزب: هو مجموعة من الأذكار والأدعية وضعها الشيخ لإتباعه للذكر واستغفار الله الأول التوبة والإنابة

- 7- المرجع نفسه , ص22
8- المرجع نفسه , نفس الصفحة
9- سورة ابراهيم الاية 14
10- السراج الطوسي: اللمع , تحقيق د. عبد الحلیم لحمود
وأخرون, دار الكتب الحديثة بمصر, 1960, ص.65-66
11- عامر البخار , مرجع سابق , ص.24
12- أبو حفص السهرودي : عوارف المعارف , طبعة
مصر , 1939, ص.70
13- محمود أبو الفيض المنوفي : بداية الطريق الي مناهج
التحقيق في ظلال الشريعة ورحاب الحقيقة , دار
القومية للطباعة والنشر , مصر , 1946, ص.69
14- عامر البخار , مرجع سابق , ص.25
15- القشوي: الرسالة تحقيق , د. عبد الحلیم لحمود
وأخرون . ط. دار الكتب الحديثة , مصر . ص.90
16- السراج الطوسي : مرجع سابق , ص.334-335
17- المرجع السابق ص 330 .
18- سورة الكهف , الاية 69
19- سورة الكهف , الاية رقم 77
20- أبو عبدالله لحمد بن ابي بكر الرازي الحنفي, حدائق
الحقائق : تحقيق ابراهيم شمس الدين , دار الكتب العلمية
, ط. 2002 م . ص.180
21- نفس المرجع , ص.181
22- السراج الطوسي , مرجع سابق , ص.277
23- سورة النور , الاية 31
24- عامر البخار , مرجع سابق, ص.26
25- سورة الفتح , الاية 10
26- سورة النحل , الاية 92
27- عامر البخار , مرجع سابق , ص.41
28- السراج الطوسي , مرجع سابق , ص.41
29- أبو عبدالله محمد بن أبي الرازي الحنفي , مرجع
سابق . ص. 109
- 30- سورة الاحزاب , الاية 41-42
31- سورة البقرة الاية 66
32- سورة الرعد , الاية 28
33- حديث متفق عليه, رواه البخاري ومسلم في
صحيحهما
34- سورة الاعراف الاية 205 .
35- عامر النجار , مرجع سابق , ص 37-38 .
36- السراج الطوسي , اللمع , ص 343 .
37- العز ابن عبد السلام , مفاتيح الكنوز , ص 28-29 .
38- عامر النجار , مرجع سابق , ص 42 .
39- الرازي الحنفي , مرجع سابق , ص 153 .
40- الغزالي , الأحياء , ج 3 , تحقيق : سيدي إبراهيم ,
من صادق عمران , دار الحديث , القاهرة , 1998 ,
ص 220 .
41- عامر النجار , مرجع سابق , ص 45 .
42- عامر النجار , مرجع سابق , ص 50 .